كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في الجلسة الافتتاحيّة للمؤتمر الدوليّ الذي نظّمه مركز الدراسات "ميشال هنري"Michel Henry وقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة القدّيس يوسف، حول فكر الفيلسوف السويسريّ شارل سكريتان Charles Secrétan، فيلسوف الحريّة، يوم الجمعة الواقع فيه ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥، في تمام الساعة السادسة مساءً، في قاعة المحاضرات (المبنى C – الطابق الخامس) حرَم العلوم الإنسانيّة.

١. لا يسعني إلاّ أن أرحّب بهذه المبادرة التي اتُّخذت بالمشاركة مع السفارة السويسريَّة في لبنان، والممثَّلة اليوم بسعادة السفير السيّد فرانسوا باراس François Barras، وقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة القدّيس يوسف. في الواقع، لقد عوّدَتنا السفارةُ السويسريّة المداخلاتِ في مجالات العلوم السياسيّة واللامركزيّة والديمقراطيّة، وفي القضايا الإنسانيّة الأكثر اضطرابًا واضطرامًا. أتذكّر ذلك المؤتمر الذي تمّ تنظيمُه في معهد الدراسات السياسيّة في جامعة القدّيس يوسف في العام ٢٠١٢، حول "الديموقراطيّة اللُبنانيّة تحت اختبار فكْر جان جاك روسوJean-Jacques Rousseau" في مناسبة الذكرى المئويّة الثالثة لوِلادته. في الواقع، إنّها مئويّة أُخرى تلك التي تجمعنا اليوم؛ وهي ليست سوى مئويّة مؤلِّفٍ وفيلسوف ولاهوتيّ سويسريّ، شارل سكريتانCharles Secrétan، الذي وُلد في العام ١٨١٥، أي منذ مئتَي عامٍ، وترك أثرًا على عصره بكتابِه "فلسفة الحريّة" الذي صدر في العام ١٨٤٥، في وقتٍ تعاني فيه الحريّة اليوم من غياب الحريَة في صيغة المفرد، والحريّاتِ في صيغة الجمع، بحيث إنّ هذا العالم الذي نحن جزء منه يتخبّط في اللامعقول، وفي ما يرافقه من عنفٍ يجتاح هذا العالم ويحلّ فيه مؤثِّرًا في عصرنا. إلا أنّ لاختيار الفلسفة معْناه الخاصّ: العلوم السياسيّة وسائر العلوم الإنسانيّة، كالتاريخ مثالاً، تحاكي الفلسفةَ بحيث إنّ شكلاً من أشكال الأنتروبولوجيا أو المقارَبة الفلسفيّة يسبق أو يرافق العلوم. الفكر الفلسفيّ الذي يتمتّع به شارل سكريتان، من بين أمورٍ أخرى، يمكن أن يكون ذلك الأساس الذي يضمّ الليبراليّة إلى المسيحيّة وقوَّتِها الأخلاقيّة، كمَرجِعٍ أوَّليٍّ للممارَسة السياسيّة في مظاهرها المتعدِّدة.

٢. إنّ تعليم شارل سكريتان (١٨١٥–١٨٩٥) الذي كان أستاذًا في لوزانLausanne، يتّجه في آنٍ معًا،

كما يقول إميل برييه Émile Bréhier في كتابه "تاريخ الفلسفة"، ضدّ نوعين من الإفراط: "إفراط اللاهوتيّين العقلانيّين، وإفراط العقائد الاستبداديّة؛ هو يناهض تفاؤلَ "الدُّعاة المُشار إليهم بالمتحرّرين" والذين يَدْعون إلى وَحدة الوجود، وهو يناهض سلطةَ المذهب الإيمانيّ الخالص؛ إنّه يؤلّف بين الاثنين مفهومَ "العقل المسيحيّ"[١]. ويمثّل هذا الموقفُ الحالةَ الفكريّة لهذه الحركة من الأفكار الدينيّة التي نُطلِق عليها في سويسرا اسمَ "اليقظة"« Réveil ». أنا لستُ ولن أكون قارئًا منهجيًّا أو متخصّصًا لمؤلَّفات شارل سكريتان، ولكنِ انطلاقًا ممّا تسنَّت لي قراءتُه من هذه النصوص أو من تعليقات فِكره، يبدو لي أنّه صاحبُ فكرٍ أصيل ومثير للانتباه لا للأَمُبالاة. سأكتفي بذكرِ جُملتين أو ثلاثِ جُملٍ تستحقّ أن نُشير إليها من أعماله الموسوعيّة، لأقول إنّ مساهمتي في هذا المؤتمر الهامّ محدودة جدًّا.

٣. أُحيل إلى ما كتبه المؤلِّف سكريتان: "إنّ الفكر المسيحيّ هو جزء لا يتجزّأ من عمل إعادة تأهيلنا الروحيّة (والأمرُ يتعلّق هنا بترميم صورة الإنسان المشوَّهة بعد السقوط)، وهو عملٌ لا يمكننا أن نتخلّى عنه..."[٢]. كما لو أنّ سكريتان يقول لنا إنّ باب خلاصنا يكمن في الفَهم الصحيح للمسيحيّة. ويبدو العقلُ البشريّ مزوَّدًا بقوّة مميَّزة، لأنّ فرْضيَّته تكمن في أنّ التجدّد الداخليّ للإنسان– باعتباره نقطة عقائديّة أساسيّة– يستخدم هذا العقل" هنا والآن "بحيث يجب أن يستوعب العقل ويُعيد تحديد إيمانه الخاصّ واندماجه فيه، لكَي يكون هذا التجديد ملائمًا لاجتهاده. إنّ سعي الإنسان إلى خلاصه لا يقتصر على العبادة الخارجيّة فحسب، بل على العبادة الداخليّة، وفي سموِّ هذا العقل بوَصفه عقلاً نقديًّا وعمليًّا، متحرّرًا من القوى غير الأخلاقيّة. في المُطلق، هذا الفكر هو آنيٌّ ومُعاصر إذا ما عُدنا إلى العمل الضخم الذي أنجزه المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وهو، قبل أن يُعتبَر مبرِمًا لمراسيم ودساتير عقائديّة، كان قد فرض نفسه كمساحة فكريّة سادت فيها المقاربة الفكريّة من أجل فهمٍ أفضل للسرّ المسيحيّ عند التطرّق إلى قضايا العالم المعاصر. في هذا الاتّجاه، ينبغي لِكنائسِنا في الشرق الأوسط على الأقلّ أن تبذل جهدًا في هذه القراءة الفكريّة حول وجودِها المعنويّ، وشهادتِها في عالمٍ تمزّقه الصراعاتُ والمتغيّرات الاجتماعيّة التي لا نهاية لها.

---

١. تاريخ الفلسفة، الجزء الثاني؛ الفلسفة الحديثة، ص ٦٤١، منشورات PUF .
٢. شارل سكريتان، فلسفة الحُريَّة، القسم ٢، ص ٩٦٣. نقلاً عن إميل. برييِر.

٤. من الفكر والعقل، فلننتقلْ إلى تعبير فلسفيّ آخر هو تعبير الحريّة، لأنّ كتاب المؤلّف الرئيسيّ يحمل عنوان "فلسفة الحريّة". في الفصل الأوّل من هذا الكتاب، يتبيّن للقارئ الطابعُ الذي يتّسم به هذا المؤلَّف، وأنا أقتبس منه التالي: "باختصار، لا يمكن أن يُقِرّ الإنسان بمبدأ الحريّة التي تتمحور حول الأنا، ويكتب مِن ثَمَّ قائلاً: "أنا الحريّة"، ولكن عليه أن يتطرّق إلى الحريّة في كَينونتها فيكتُب قائلاً: "يجب على الحريّة أن تكون"[٣]. حرّيتكم تبقى تحت تأثير واجبٍ لا تفسير له، من هنا عليكم أن توضحوا لماذا تلتزم الحريّةُ بالواجب تجاه نفسها". الحريّةُ، تلك القدرةُ على القيام بعمل أو الامتناع عنه، لا يمكن تصوُّرُها على أنّها أُقنومٌ فكريّ، بل يجب عليها أن تكون كائنة في ذاتها أو هي مدعوّة أن تقوم بواجبها. هذا هو هدف الفلسفة ورسالتها: أن تعطي الحريّةَ القدرةَ على الوجود وعلى تحقيق ذاتها كما ينبغي أن تكون عليه، ونحن نرى مسبقًا كيف أنّ سكريتان يربط بين الحريّة والواجب الأخلاقيّ. إذا نظرنا حولنا عن كثَب، نجد أنّ المطلبَ الرئيسيّ لتظاهرات الربيع العربيّ كان متعلّقًا بالحريّة التي يجب أن تكون ضروريّة؛ من حيث الشفافيَةُ والخِطابُ الفرديّ والقوّةُ الاقتصاديّة. وإن كان هذا المطلب منسيًّا فهو لا يزال صحيحًا، ولا يمكن تصوُّرُ المستقبل من دون أن يتمّ تحقيقُ هذا المطلب في تحديد مصير كلّ فرد وكلّ البشر.

٥. هناك جملة ثالثة تحيّرني وبها أختم كلمتي هذه. يقول الفيلسوف: "إن لم تكن الإرادة حرّة، تنتفي الأخلاق ويندثر الفنّ"[٤]. ونحن نفهم من هذا التأكيد أنّ أصل جميع الواجبات يتمحور في الحريّة وما هي عليه في كينونتها، وأنّ هذه الحريّة مرتبطة بالواجب. وهكذا، العمل الأخلاقيّ مشتقّ من الحريّة ومن ضمير حرّ، وهذا يعني أنّ مصدر العمل الأخلاقيّ الحقيقيّ لا يمكن أن يكون إلاّ عمل ضمير حرّ. وانطلاقًا من الفلسفة الأخلاقيّة، يوجّهُنا سكريتان نحو فلسفة جماليّة وكأنّه يجب على الحريّة والأخلاق والفنّ أن تسير معًا، باعتبار أنّ الفنّ هو تلك القوّةُ الفكريّة والعاطفيّة التي تجعلنا نتكلّم عن العالم ونعيدُ تفسيرَه بطريقة فرديّة ومن دون عوائق.

وهكذا، نحن في منأًى عن كلّ دوغماتيّة (عقائديّة)، وعن كلّ القواعد الأخلاقيّة المفروضة من الخارج من قِبَل كلّ هذه المجموعات من الأخلاقيّات الصغيرة التي أوجدتها التقاليدُ والناطقون باسمها حول وسائل الاتّصال

٣. سكريتان، فلسفة الحُريَّة، القسم الأوَّل، الدَّرس الأوَّل.
٤. سكريتان، فلسفة الحُريَّة، القسم الأوَّل، الدَّرس الأوَّل.

الحديثة، والتي تجعل العديدَ من الشعوب خاضعةً ومسيَّرة بأمرٍ آخرَ غيرِ ضميرِها الذي استقال تاركًا المجال واسعًا لنَوبات العنف والموت الأكثرِ فتكًا بالبشريّة. يحدّثنا سكريتان Secrétan اليوم عن حاضِرنا الذي لا يزال مجلبَبًا بظُلمات الماضي الحالكة، ويحُثُّنا على استئناف مسيرة الفلسفة وإدخالها إلى عالَمنا العربيّ المختزَل بمنطِق بدائيّ بُغية إقفالِ الدائرة التفسيريّة بطريقة مُحْكَمة، أو التسليمِ بمسلَّمات وفرْضيّات غير قابلة للجدل، ومنْعِ أي مقارَبة نقديّة قد تهدِّد الأيديولوجيّات القائمة. إلاّ أنّ السؤال يُطرَح: إذا كان الضمير حرًّا– ويجب عليه أن يكون حرًّا– فكَيف يتصوّر الخيرَ الشامل؟ هل يكفي أن نقول إنّ العمل الأخلاقيّ الذاتيّ، حين يُتَّخذ بعد الخير الشامل، هو بحقٍّ عملٌ أخلاقيّ؟ على المؤتمر أن يجيب عن الأسئلة.

تَهانيَّ لمُنظِّمي هذا المؤتمرِ حول الفكر الغنيّ والمهمّ والآنيّ الذي يتمتّع به شارل سكريتان، والذي يدعونا بدَوره، ومِن منبرِه العالي، إلى "النهضة" الدائمة[٥].

٥. في القرن التاسع عشر، كانت "النهضة" حركة متقاطعة من النهضة العربيّة الحديثة الأدبيّة والسياسيّة والثقافيّة والدينيّة في آنٍ معًا. مُذّاك، عدّة مفكّرين وفلاسفة عرب، أمثال محمّد أركون وناصيف نصّار، دعوا إلى استعادة ذلك الزمن المعروف بـ"النهضة".